من أمير الى سلطان

ترجمة الخطاب الذى رفعه المغفور له الأمير مصطفى فاضل باشا
الى صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦

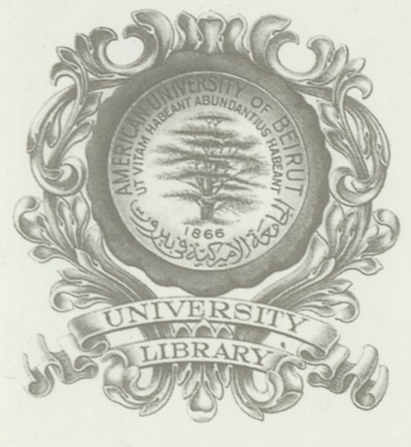
بقلم
فقيد العلم والعلماء المرحوم المبرور

احمد فتحى زغلول باشا

« عنى بتصحيحه و نشره »
توفيق الرافعى

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

من أمير الى سلطان

ترجمة الخطاب الذى رفعه المغفور له الأمير مصطفى فاضل باشا الى صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦

(نقله إلى اللغة العربية)

« المرحوم »

احمد فتحى زغلول باشا

« عنى بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها محمد موسى خريف

«كلمة للناشر»

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين: وبعد فهذه رسالة إصلاح من رسول تجديد وصلاح تقدم بها أمير مصرى حر الفكر سرى النزعة نبيل الهوى هو المغفور له الامير مصطفى فاضل باشا الى أمير المؤمنين السلطان عبد العزيز

تقدم بها ذلك الامير المصرى إلى ذلك المقام العلي فكانت بالحكومة العثمانية صيحة حق على انها لها نصيحة صدق على حين كان العثمانى الحر يؤثر أن يئد كلمة الحق فى وجدانه على أن يبعثها على لسانه لقنوط من الاصلاح وانقطاع الوسيلة اليه إذ كانت الامة العثمانية تئن من عسف حكومتها وأولى الامر فيها ولا تجرؤ على الشكاة وكانت من الجهل والفقر تضرب فى ليلين ومن المظالم والمغارم تركب لجين وقد ضربت الفوضى فاثقلت

ونفض الاساة أيديهم يأساً أو كادوا حتى خيف على بناء ذلك الملك العريض أن يتداعى بعضه لبعض

ولكن ذلك الامير المصرى لم يمر بخلده طيف اليأس فارسل قامه على سجية كل قلم حر يتخطى الحواجز القائمة ويشق السجوف المرسلة حتى مر صريره بسمع أمير المؤمنين فابرأ بذلك ذمته وأرضى ضميره وقام بالنصح عن كل ناصح

ولا أصف هذه الرسالة التى اتقدم بها إلى القراء بغير ما تصف به نفسها فانها فى بلاغة الاصلاح أسلوب قائم بنفسه وهى تشبه فى طب السياسة أن تكون تشخيصاً لجمهرة أمراض متشابهة الظواهر والاغراض

إنى ألفت نظر قارئها الكريم إلى أن كاتبها قد نفى عن الدولة شبهة أغرم المتعصبون برمايتها بها وهى شبهة التعصب الدينى فقد أثبت فى سياق ذلك النفى أن العثمانيين جميعاً مسلمين وغير مسلمين كانوا فى تحمل الظلم سواء

وقد حفلت الرسالة بطائفة من عيون الحكم وكانت فى جملتها وتفصيلها آية اخلاص واصلاح وذلك من سر خلودها على الدهر

القاهرة فى يناير سنة ١٩٢٢ — توفيق الرافعى

تمهيد

من أمير الى سلطان

لما اعتلت أحوال الدولة العثمانية وتداعى بناء الملك وخاف الناس على الخلافة أن تذهب بها يد الجور وظلم الرعية كتب المغفور له مصطفى فاضل باشا ابن المرحوم ابراهيم باشا ابن المرحوم محمد على باشا سنة ١٨٦٦ الى السلطان عبد العزيز هذا الخطاب يقول :

ياصاحب الجلالة

ما أصعب وصول كلمة الحق إلى حظيرة الملوك والامراء ، البطانة تحجبها وتخفيها ، والملوك سكارى ، بخمرة الملك منصرفون عن الصواب بلذة السلطان

يظنون أن الأمم إذا تعبت فبما كسبت ، وإذا ساءها حال فبما أهملت ، وأن الدول إذا دالت ، فذاك طوعاً لقضاء لامرد له

يحتاج المرء فى استقبال الواقع ، وطرح الخيال ، إلى إخلاص وإقدام ، وهو أحوج إلى ذلك ليبلغ الامر وما فيه للسلطان

مولاى

ما برح عن قلبى ذلك الاخلاص ، وجلالة الملك يشهد به ، ولا يجهله أولئك الذين كانوا السبب فى اغترابى ، نعم لم أجد من الزمان ما كنت أرجو حتى أبرهن بساطع الاعمال على تعلق بذاتكم السامية ، ورغبتى فى خير أمتى وسعادتها ، إن لم أقل مع الاسف فى بعثها ، غير أنى أول من أزاح أمامكم الستار عن عيوب حكومتكم ، وكشف ما ينتاب الوطن من المحن ، ففكرى

موقوف على خدمة جلالتكم وخدمة الدولة العثمانية، وقد استمددت من ميلي نحو عرشكم واحترامي، ومن حبي لوطني وإعظامي، قوة انظر بها غير هياب محنًا تجتاحنا في غسق الليل وضوء النهار، ويقيني بكرم سجاياكم يجرئني على بيانها فلا أخفي واحدة منها، وأعود إلى وصف الدواء الذي يشفينا إذا لم يمض الزمان قبل عقد العزائم وشد الرحال

مولاي

إن ما يبدو من رعاياك المسيحيين من الخروج على السلطان عمل من أعمال أعدائنا الاجنبيين، ولكنه أيضًا دليل على ما يصيب الرعية كلها من جانب حكومتكم، فقد انتهجت معها مسلكا إذا عذرت لاجله فيما مضى فلا عذر لها في البقاء عليه الآن، لانه لن يثمر غير الظلم، ولن ينشر إلا الجهل، ولن يجلب إلا الفاقة والفساد

يظن الاوربيون أن المسيحيين هم الذين اختصوا في الدولة العلية بالظلم والهوان، وأنهم وحدهم يسامون العذاب ويستذلون، إن بعض الظن إثم، المسلمون ولا من ينصرهم من دول الغرب

أشد آلاما ، وأغرق فى الظلم ، وأتعس حالا ممن أنكر رسالة النبى ، وما صبروا على ما أصابهم إلى يومنا هذا إلا لأن قلوبهم أشربت حب الرضا بالقضاء مقرونا بأناة طويلة ونفس أبية مما لايدركه الغربى ، ثم هم سلالة أولئك الكرام الذين استووا على عرش السلطنة وقد امتزج فيهم إخلاصهم للدولة باعتقادهم بالقرآن ، لكن اسمح ياذا الجلالة لخادم أخلص لك الولاء أن يقول : لم يبق فى قوس صبر المسلمين منزع ، فقد بلغ بهم الضر نهايته ، وأكلت أجسامهم الآلام ، وأمسوا لاقدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا ، ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا

اشتد الظلم بالناس وما أنت إلا كاره إياه ، وما إخال عظماء أمتك إلا راغبين عنه ، ولكنه أثر لازم للحكومة بجملتها ، حتى إنك وحولك معروف وطولك باد قد لاتقدر على منعه ، إذ هو لايتصل بعلمك ، مع انه يضعف من رجولة هذه الامة ، وينقص من ذاتيتها ، ويحط من قدر فضائلها

مولاى

فى رعاياك قوم مخلصون تتولى الحسرات قلوبهم إذ ينظرون إلى هذه الامة التي هى مجدنا وفخارنا تنفل صفوفها لقلة النسل أو للهجرة ، على أن هذا لا يروعنى فقد يكون لنظام جيوشنا دخل فيه ، بل الذى أخشى وأراه يقترب منا اننا معشر العثمانيين أشبهنا الامم المغلوبة ففشا فينا منذ بضع سنين انحطاط فى الخلق يشتد يوماً بعد يوم، ويعم طبقات الامة شيئاً فشيئاً

مولاى

ما قضى آباؤنا منذ أربعمائة عام على دولة الشرق ، وثبتوا أقدامهم فى المدينه التى جعلها قسطنطين عاصمة الدنيا ، وأحرزوا ذلك الفتح العظيم الذى يعد من أكبر الاعمال مجداً فى التاريخ ، بمحض الاعتقاد بالدين والشجاعة فى القتال ، بل إن تلك النهضة وهذه الشجاعة أثر من آثار خلقهم الادبى ، كانوا يطيعون أولى الامر منهم عن رضا لا مكرهين ، فما ذلوا ، ولا استسلمت ألبابهم بل باتوا على عزة النفس واستقلال الذات ، اقترن فيهم روح النظام

بروح الانفة قائمين على خلق متين ، قدروا الفضيلة قدرها فقهروا تلك الدولة الكبرى التي استوطنتها رذائل الاستبداد ، ونزلت بها مخازى الظلم والمغارم

نعم ، ليس الخلق الادبى المتين كل القوة فى هذا الوجود حيث نرى للجرائم جيوشاً وللآثام سلطاناً ، لكنه الاس القوى المكين ، لاتقوم دولة بدونه ، وإذا هو فارق الامة تداعى بناؤها ومن خواصه أنه يعظم ما عظمت فتوحاته ، أما غيره من الصفات فانه يتحلل فى آثاره ويفنى إن ظفر

مولاى

كل الذين يرجون فخاركم ومجد الوطن ينظرون ، والنفس مثقلة بالاحزان ، إلى ماحل بالامة من نقص فى شهامتها ، وتدل فى شرفها وعزتها ، وأنى لها البقاء على تلك الخلال مهما تأصلت فى نفوسها ، والمسلمون منهم يقاسمون النصارى صنوف الذل ، ويشربون معهم كأس الهوان ، وكلهم يستجير من عسف الولاة والحكام ، رجال ماخضعوا لسلطانك إلا بالاسم ، وإلا فانك لاتدرى أهم ينفذون إرادتك فى الامة ؟

خلت بلادك من رأى عام ، فأصبح عمالك غير مسئولين أمام رعيتك ، ومعناه أنهم أمسوا غير مسئولين أمام عرشك ، فلامن يقدر على أن يبث اليك شكوى عاثوا فى الرعية ، واستباحوا كل منكر ، وصار الناس طائفتين ، حاكم يظلم ولا من يردع ومحكوم يظلم ولا من يشفع ، حاكم يدعى أن سلطانه من سلطانك لاحد ولا قيد ، ويتذرع بذلك إلى النقائص والمعاصى ، ومحكوم يهوى الى حضيض الذل بما يساء اليه ، حاكم سد دون الرعية أبواب الشكوى فاذا ما ارتفع بها صوت ملؤه التعظيم قالوا قوم ثائرون ، لهذا تولى اليأس الرعايا ، وأنوا تحت أحمال المظالم وهم صامتون ، وأخذهم الجور وأنتم تعلمون أن الجور يفسد الضمائر ويطمس العقول

الدم الذى يجرى في عروق الترك طاهر كريم ، لا ريب أنا نحب الوطن حباً جماً ، وحب الوطن يقوى عزائمنا ، ويسهل علينا أغلى الضحايا ، ولا نزال جنداً بواسل لا نخاف الموت ، ولنا وقار ورثناه عن آبائنا الاولين ، ومن مميزاتنا إخلاص صريح يجعلنا نفضل المساواة على كل خير سواها ، ترى تدوم فينا هذى الصفات طويلا ، وهل نثبت أمام هذا الصدام ؟

مولاى

إن يوماً تفارقنا فيه هـذه الاخلاق ليوم يحق فيه الهوان علبنا ولن نجد لنا بعد ذلك منقذاً

ليت مصابنا محصور فى انحطاطنا الادبى ولم يمتد إلى ما نحن فيه من الجهل السحيق بل من فساد قوتنا العاقلة

مولاى

لما نزل آباؤنا باوروپا لم يكن لهم من سنا العلم شىء، ولـكنهم كانوا ذوى ذوق سليم فيـه قوة ومضاء، شأن النفوس الطاهرة العالية، وكانوا ذوى عقـل يحب الحركة وينفر من تافه الامر، لا كما كان أولئك الذين تفرقوا يوم أطلت عليهم طلائعنا، واأسفاه إن العقول لتصاب بالشلل فى حكومة لا مجال لهمة الافراد فيها

مولاى

الترك أشد رعاياك تأثراً بالاستبداد، لانه لا يتفق مع ما فطروا عليـه من استقامة النفس وعزتها، ولسنا معشر الاتراك على شىء من

تلك الكفاءة المخزية التي كانت لمتر في البيزنطيين ، تراهم من أهل الفطانة إلا أنهم لا يأبون الضيم ، ولا ينفرون من حكومة مطلقة القول في الرعايا ، خلقنا سذجاً يعجب البشر بتبسط أفكارنا ، فلما نبت أفكارنا عنا تبلهنا وصرنا ولا عقل فينا ، واذا مادام هذا حالنا فقدنا من يصلح لحكمنا ، وعز من يحسن الادارة بيننا ، وليت المغلوب وقد امتاز من بعض الوجوه عنا كان أصلح حالا منا ، انا واياه من نكد الطالع سواء

مولاى

نحن في عصر لا سؤدد فيه الا لمن كبر عقله ، وكثر علمه ، ولما يئن زمان الحكم لمن هو أطهر نفساً وأشد اخلاصاً ، من أجل ذلك انصرفت الهمم في ارجاء أوروبا الى التعليم ، حتى أن أقل الحكومات رغبة فيه لا تجد للهرب من الاهتمام به سبيلا ، هذه سويسرا قد لا ترى فيها رجلا أميا ، وتلك يلاد الانكليز التي تحكمها طائفة من الشرفاء تتخلى رويداً رويداً عن امتيازاتها قد نهضت منذ خمسة وعشرين عاماً لنشر المعارف الاولى نهضة كبرى ، وكأني بالامة البروسيانية ما ظفرت بالامة النمساوية الا لان الغالب كان أعلم من المغلوب ،

أرضى بالانحطاط العقلي ، ومن حولنا أوروبا تبذل كل نفيس في سبيل رقيها ؟

انى أعيذ مولاى أن يظن الاكثار من المدارس كافياً لنشر التعليم وبث العلوم فماذا تنفع المنازل لاسكان فيها ، وما الذى يرجى من مدارس أولادها أبناء ذل خاملون ؟

ألحرية أول مرب للامم ، هى تخلق كل مرب عداها ، وما من مرب يسد مسدها ، والامة المستعبدة تحتقر العلم لانه لا يفيدها ، وانما ترغب الامم فى العلم اذا كان لها من الحقوق ما وثقت منه وأمنت عليه ، فتتعلم لتحسن الانتفاع بحقها ، وكل أمة جاهلة مستعبدة هى جبان أو خائنة

مولاى

مصابنا فى هذا الزمان دونه ضعفنا الادبى وفساد عقولنا ، انا نلتقى أينما سرنا بخصم عنيد جبار هو الفقر ، كم رأت جلالتكم خزائنكم خاوية ، كم حزنتم اذا أعوزكم المال لدفع رواتب العمال ، كم دخل الاسى قلبكم الرحيم ، اذ علمتم تفاهه ما يجرى من الرزق على خدام دولتكم ؟ ذلك بما علمتم من أن العامل فى الشرق ان قل راتبه أ كل

السحت ، وأخذ مما فى أيدى الرعية : الا أن فراغ خزائن الدولة لايحزننا كما نحزن لسوء الحال المدلول عليه بهذا الفراغ ، ذلك خطر أشد

حكومتكم هى التى تعيش بين الحكومات من خراج قليل ، ومملكتكم متنائية الارجاء كثيرة السكان وعجيب أن يثقل كاهل أمة كبرى بمثل هذا الخوارج اليسير ، لكن لا عجب إذ علمنا أن طريقة جبايته من أكبر الطرق عيوباً ، وأن الامة لاتعمل إلا قليلا وتجهل كل شىء ، بهذا عضها الفقر ، وباتت تئن تحت مغارم الحكومة ، حين لايشعر غيرنا بمثل مغارمنا

هوى كل شىء فى الدولة ، الزراعة ثم التجارة وأختمها الصناعة فكانما ضللنا سبيل الانتاج ، وجهلنا وسائله ، وجمدنا فى مشاهدة فقرنا ، فلا يحرك مرأى الفاقة فينا همة ، ولا يدفعنا إلى عمل

مولاى

يدعى الاوربيون أن ضعفنا وانحطاطنا راجعان إلى شعبنا وديننا ، ويقولون لا نصلح لغير الجندية ، ومذهب القدر يقعد بهمتنا ، ما شذت أمة الترك عن الامم الاخرى ، وإذا هى بكرت

بعمل الجندى فلكى تتخذلنفسها مكاناًتحت القبة الزرقاء ، فمافعلت إلا كما فعلت أمم خلت من فرنك وجرمان وعرب ، وسواء أبدت حركة الامة أولا فى الحرب أو الصناعة فالمصدر واحد ، هو قابلية الحركة مطلقاً ، وما من أمة كبرت شجاعتها إلا كان لها مع الزمن فى الصناعة القدح المعلى ، اللهم إلا محن تثنيها عن طريقها ، والامتان الفرنساوية والانكليزية أصدق برهاناً

أما ديننا فلا فرق بينه وبين الاديان الاخرى فى كونه خاضعاً لما أراد الله فيه ، وللنصارى معتقدات فوق جميع معتقداتنا ، فعندهم مذهب الجبر وقد علمهم رسولهم بولس أن العبد فى يد الرب كالطينة فى يد صانع الجرة ، وما كان هذا يامولاى بمانعهم من نيل الخيرات بجد لا جد بعده ، وإنا لنحسن صنعاً إذا كنا لآثارهم مقتفين

الحق أولى أن يقال : ما منعنا من أن نكون أمة جد مثلهم إلا طريقة حكمنا ، فحيثما يتاح للانسان أن يستثمر الانسان لا يستثمر عقله ، ولا يستغل أرضه ، وأنى ضرب الظلم مضاربه رغب الناس عن العمل ، إذ ما من يضمن لهم ثمرة أتعابهم ، ذلك حال الفرنساويين قبل سنة ١٧٨٩ ، تلك البلاد الجميلة التى تعجب

بها جلالتكم وأعجب بها ، كانت في خمول ، والحركة تمنطقها ، وقام فيها وزير بعد وزير جليل القدر يريدها على صناعة راقية ، فبذرت بذورها فى أرض مستعصية بيد حاذقة لـكنها مستبدة ، فلم تجد البذور من ماء الحياة الصحيحه ما يغذيها ، فازورت تحت قدم الاستبداد ، وما زال بها حتى فنيت ، وكان الفلاح فى بعض الاقاليم لا يكاد يشبه الانسان ، يهيم فى الغابات ، لباسه جلد الوحش ، ويرى الخلق ثوباً قشيباً ، فى ثلاثين حجة تبدل يامولاى كل هذا بعد أن أعتقت الامة من رقها منذ سنة ١٧٨٩ ، وحل الفرنساويون مقاماً محموداً بين أغنى الدول وأكبرها همة فى القارتين ، إن فضل الحرية كان على الامة الفرنساوية فضلا كبيراً

مولاى

الحرية تحيي الامم حتى الحياة المادية ، وإذا ما تجرد المرء من الحقوق بات على الطوى ، وأصبح لا يجد رغيفاً

مولاى

إذا بلغ الحال بأمـة ما قدمت ، ونال الزمان من فضيلتها ،

وزار السبات رويداً رويداً محاجر عقلها ، واشتد وقر الفقر فيها ففرغت خزائن الدولة ، وجب على من أشرب قلبه حب الوطن ، وملأ الاخلاص جوانحه أن لا يكتفى بطلب الاصلاح ، فما الاصلاح إلا كلمة لا معنى لها إذا لم يصاحبه العمل ، كم من قانون وعدناه أو نشر فينا ، وكم لدينا من الوعود بالخيرات ، لهذا وجب علينا أن نتقدم خطوة إلى الامام لنبلغ هذا الملتمس الهام الى العرش محفوفا بالتجلة والاعظام

مولاى

خذ بيد الدولة تجدد شبابها ، وامدد اليها يد الدستور تنشلها من الفوضى ، هب الامة دستوراً صحيح الجسم ، رحيب الصدر ، خصيب التربة وحفه بالامان وحطه بما يضمن الاخلاص فى انفاذه ، والامانة فى الجرى عليه ، وبما يصونه من العبث به مدى الايام ، دستوراً يتساوى أمامه المسلمون والنصارى فى الحقوق وفى الواجبات ، ليسود الوئام ، ويهبط على الكل السلام ، وترد حجة الذى يقول من أهل الغرب : ان التآلف بين الغالب والمغلوب محال

آه مولاى

أرى المنافقين أو الجاهلين من ذوى الرأى فينا يسارعون الى الاستفادة حتى من كلمة الدستور ، يقولون لجلالتكم : الدستور يصير الملك آلة لاروح فيها ، يسلبه اختياره ، وينزع عنه شعاره ، وللامة : الدستور يريد المسلمين على ترك ماعز لديهم : دينهم ولباسهم وما ألفوا ، أولئك قوم ماكرون ، أوهم قوم جاهلون

مولاى

أنبذ مشورتهم ، أمتي خل عنك سعايتهم ، ما قيد الدستور غير الهوى ، وما انتزع من الملك الا حرية الخطأ فى سياسة الرعية ، والا اختيار السر فى حكمها ، وما فرض على الرعية فرضاً ينبو عنه مجدها ، أو يذهب معه نعيمها ، ولكنه يكفل الدين ، ويصون الملك ، ويحفظ الاموال على أهلها ، وينزل السكينة فى قلوب الامة ، ويصير المرء حراً كريماً

الدستور يتيح لنا أن نبدل روابطنا الدولية الحاضرة بأحسن منها ، فمن بلادنا أو فى أوربا الغربية التى لا يعلم ما أصابنا من الضر

بتداخل معتمدى الدول فى أمورنا ؛ أجل كثر ما رفع أولئك السفراء صوتهم بطلب الاصلاح عندنا ، ولكن ما أكثر ما طلبوه إيثاراً لقوم على قوم ، أو خدمة لبعض الافراد وهو أقبح وأنكى ، والدستور يقيم لنا بناء حكومة قوية لا منفذ فيها لقول الاجنبى ويبسط الحماية الحقة على صنوف الرعية ، وينشر على الجميع راية عدل يستوى فيه كل امرء بأخيه

مولاي

أزفت الساعة ، نج دولة الآباء ، ان ثمنها من المهج والدموع كان عظيما ، إن ماضيها كان عصراً مجيداً ، ان حاضرها ليحزننا حزناً شديداً ، ما أشق هذا الحاضر على نفس جلالتك كل ما حولنا يتهددنا ، وكل ما عندنا يتداعى ، وثاقب نظرك محيط بما يحيق بنا ، فما فى الامر محل للخيال ، لك الجند قادرة على إخماد كل ثورة تتأجج من وقود الاجنبى ، لكنهم ليس فى رواحلهم زاد يتبلغ به من يخضعون ، ولا فى أسنتهم حكمة ينزلونها فى قلوب المغلوبين ولا فى وسعهم أن يحيطوهم بسور من الامان حيث يقيمون ، ولا أن يرفعوا عنهم ظلم الظالمين ، لكم أن تسوفوا يوم اللقاء بما تهبون

للطامعين فى ملككم من المزايا ، ولكن ماحظنا من هذا العطاء وقد نكون بسببه يوم الحساب أضعف جانباً وأوهن رابطة وأقل مالا

مولاى

كل عام يمر ينصرم معه حبل المعين الخارجى ، وتنطفىء روح من أرواح وجودنا الداخلى ، هذه انكلترا لم تعد كما كانت منذ اثنتى عشرة سنة شديدة الرغبة فى معونتنا ، وتلك الامة النمساوية أصبحت بعد انكسارها فى ألمانيا دولة شرقية أكثر منها دولة غربية ، فيهمها أن تتقرب من العنصر السلافى المقيم بيننا ، والذى يدعو الى الحذر أكثر من هذا وذاك انقلاب الرأى الاوروبى العام علينا ، فبعد أن كان معناسنة ١٨٥٥ بدأينأى بجانبه عنا ، واذا تنازلت جلالتكم وألقيتم نظرة في جرائد باريس ولونده وفلورنسا علمتم أن الامم ذوات المصلحة فى معونتنا مالت الى الظن بقرب سقوطنا ، فكثير من ساسة فرنسا وانكلترا وإيتاليا ينظرون إلى مايجرى كل يوم فى الدولة على يد حكامها ، وما تسام الرعية من العسف والمظالم ، ويكتبون فى تلك الجرائد أويقولون : تلك حكومة لن تقدر على إصلاح نفسها ، فزوالها محقق ،

فلندعها وشأنها ، ولا نحاولن منع سقوطها ، تلك مصيبة عظمى لا مرد لها

مولاي

علينا أن نكذب تلك النبوات ، وأن نسترد الينامبيل الرأى الاوروبى العام ، وما نسترده إلا بانقلاب فيه الخير إذ يكون بارادتك ، وبأمر منك ، محفوفاً بسياج من حكمتك ، ولنقم البرهان لفرنسا وانكلترا وألمانيا وإيتاليا على أن شعبنا وديننا لا يمسكاننا فى الذى نحن فيه من ضعف وفساد ، ومما سمعنا لاجله مر الملام ، يقولون إنا متنا ، فعلينا أن نعمل كما يعمل الاحياء ، وليس فى الذى أعرض على جلالتكم من خطر ، وما هو بيدعة لم يأتها أحد قبلنا ، والامة التركية بحمد الله لا تحب أن تطير على أجنحة الخيال ، بل اقتبس من ماضى الامم ، وأرجو أن تقوم حكومتكم بما قامت به الحكومات الاخرى يوم أحدقت بها الخطوب لننجو من سبيل نجاتها

مولاى

ما نحن أول أمة مال الزمان عليها فأفسد كل صالح فيها

وأوهن قواها ، ولن نكون آخر أمة يصيبها ما أصابنا ، بل إن أمماً أوروبية غيرنا أناخ عليها الدهر بصروفه ، وتركها مثلنا في حاجة إلى النهوض والتجدد السياسي والاجتماعي ، وقد عرضت على جلالتكم كيف اضمحلت الامة الفرنساوية في القرن الماضي ، وكيف عم الضعف صناعتها فكسدت ، وثروتها فأفلست مرة في كل عشر سنين ، وكيف ساد في طبقاتها حكم الاهواء حتى قال أحد ساسة ذاك الزمان للملك لويس الخامس عشر : « لم يبق في مملكتك من يفخر بقدره الرفيع فينجو من نقمة وزير ، ولا من يحمد الله على ضعته فلا ينال منه كويتب حقير » سقطت هيبة الحكومة في تلك البلاد فما درت أي باب تطرق ، ولا عرفت أي طريق تسلك ، وكان لها في كل يوم سيرة أخرى ، وسقطت فرنسا ولا سيما بعد حرب السنين السبع إلى صف دول الرتبة الثالثة ، فكيف استردت مقامها ، ورجعت اليها القوة في بضع سنين ، واستبسل جندها فصد غارة أوروبا بأجمعها ؟

استردت كل هذا لما غيرت نظاماتها ، وإذا كان ذلك التغيير المجيد المحفوف بالمخاوف قد أضاع مهجاً وأثكل الامهات ، فذلك لان الامة لم تفهم به إلا في الساعة الاخيرة ، ساعة ان بلغت

الروح التراقى ، ساعة تهب فيها الامم مسلمة ومسيحية صارخة .
لقد فات الوقت ولات حين تقاعس

مولاى

خرجت أمة غير الامة الفرنساوية من مثل المحن التى نزلت بها ، فقامت من سقطة خيل أن لانهوض منها ، وكان خلاصها بتغيير نظامها : أراد ملك (پيمونتى) الصغير أن يكون ملك أمة إيتاليه كبرى ، لكنه ماجمع الجيوش ولا حشد الكوكبات ، بل منح أمته دستوراً حراً فملك لساعته قلوب قومه ، واستولى على عقول التليان ، وهش الرأي العام لنزعته ، وساغ له وهو يلفظ النفس الاخير أن يتنبأ بأن ابنه فيكتور عمانويل يزيد ملكه ثلاثة أمثاله ، ويضع على رأسه تاجاً من أكبر التيجان الاوربية وأبهاها ، والفضل في هذا كله لكلمة واحدة لفظ بها فى حينها ، وتلك الكلمة هى « الحرية »

لدى أمثلة أفصح لساناً ، وأسطع برهاناً ، كلها جديرة بانعام نظر جلالتكم ، أأذكر الامة النمساوية تقتحم مفاوزَ الاخطار متكئة على الحرية الدستورية ، أم أمة البروسيا تخرج ظافرة فى الصيف الماضى بفضل حضارتها لا بفضل مكاحلها الجديدة ذات

الابرة كما قالوا ، أم غير هذى وتلك؟ ولكنى عرضت ما يكفى لاقناع جلالتكم بأن منح الامم حريتها فى هذا الزمان يشد بأس الحكومات ويزيد فى قوة الدول ، أفمن باعث يدعو إلى الظن بأن تركيا تشذ عن هذه السنه ، أم هى أمة ليست من بنى الانسان ، أم هو الدين ينبذنا من حظيرة المدنية ، ويحول بيننا وبين بواعث الرقى والرفاء ؟ وجلالة مولانا أعلم منى بأن الدين سلطان الارواح ، يهدينا سبلنا إلى يوم المعاد ، ولكنه لا يقرر حقوق الامم ، وإنه إذا لم يمتنع فى معاقل الحقائق السرمدية ذهب وذهب معه كل شىء

مولاى

ليس فى هذا الوجود سياستان : مسلمة ومسيحية ، العدل واحد ، وما السياسة إلا العدل يجرى على يد السلطان

إن نظامنا القديم يفنينا : إنه أفسد طباع ساستنا ، وحط من نفوسهم ، فأفسدوا طباع الدولة وحطوا من مقامها ، فعلينا أن نخرج عن هذا النظام ، وأن لا نعود اليه أبداً ، نظام ترزح الامة تحت أثقاله ، ولا يرد صيحة المهاجم عنا ، فعلينا أن نخرج عنه إلى نظام كالذى نراه سائداً فى كل مكان ، ذاك الذى أنى نزل أنهض الامم وبنى للمجد صروحاً

أجدير بنا أن نرى الولايات التى انفصلت عن حكمنا مباشرة ، ولا فارق بينها وبيننا دماً وديناً ، تهلل للنظام الحر ونحن نقدم رجلا ونؤخر أخرى ؛ ألا تضم سلطنتك من صادق الوطنية والمخلصين ولاءهم ، ومن الساسة المحنكين ، أكثر مما تضم مصر وتونس ومولداڤيا والافلاق وصربيا ؟ بلى ، ادعهم يأتوك طائعين واجعل فى كل بلد طائفة يختارها أهلها لا مكرهين ، تكشف لك الغطاء عن أمر رعيتك ، وتمهد لك سبيل العمل على مايميل اليك حنانك الابوى ، ثم اسمح للنواب تحشدهم ارادتك فى عاصمة ملكك ، يشرحون لعرشك السامى حوائج الامة ، ويرفعون لمقامك العالى رغائبها

كان أحد الاطباء يقول : « أعطنى ذراعاً من النسيج أعطك رجلا شريفاً » ، وإنك لتستطيع يامولاى بما تمنح من الحقوق المكفولة برعايتك ، أن يكون لك رعايا أولو جد أولو عزم فى صناعتهم ماهرون ، يشكرونك على نعمة الحرية التى أنعمت عليهم ويسبحون بحمدك يوم ترفع عنهم المغارم ، وترد المظالم ، ويتفانون فى خدمتك ، ويعملون لخيرك وخيرهم ، وخير الدولة : يثقفون عقولهم ويهذبون نفوسهم ، ويستردون فضائل الاجداد ، ويبرزون

إذا أذن مؤذنهم كماة بواسل قد وطنوا النفس على أن يفوزوا أو يموتوا ، ملتفين حول عرشك لافتداء سلطانك ، إنه أمسى لما عز لديهم نعم الكفيل

ليس من قصدى هنا أن أشرح نظام الحكومة الدستورية التى أرجو نيلها منطبقة على أحوال الامة ، موافقة لاخلاقها وتقاليدها ومرافقها ، فانى سأقدم لجلالتك الدستور الذى وضعناه أنا وصحبى

فى علم جلالتكم أنى لست من ذوى الحاجات ألتمس مركزاً ، أو أستجدى ميزة أو عطاء ، إنما طمعى وأجهر به أن أبلغ جلالتكم رغبة السواد الاعظم من أهل سلطنتكم مسيحيين ومسلمين ، وغضاضة الاغتراب تخف عنى إذا استطعت عرض حقيقة الامر على مقامكم الرفيع

يا جلالة السلطان

ارجع إلى ضميرك قبل غيره ينبئك بما وجب عليك فى هذا الزمان ، حيث أخذت رعيتك الحيرة ، وحاق بها الانحدار فى كل معنى ، ذاك عمل ماجد ، لا يأتيه إلا من خصه الله بفضيلة الاقدام من فعله خلد التاريخ أثره وما بقى مخلوق إلا شكره

مولاى

إذا كان الزمان لم يسعدك كما أسعد أحد أجدادك الاكرمين فلن تك أنت الذى أقمت صرح هذه الدولة العثمانية العظمى ، فانه ادخر لك مجداً باذخاً يوم ترد عليها مجدها ، ويوم تكون الناهض الكريم بها من رقدتها ، إن صوت الوطنيين الصادقين بل صوت الملايين من رعاياك ، نصارى ومسلمين ، يشاركنى فى دعوتك إلى هذا المقام الاسمى ، فأنت الجدير به وهو الجدير أن يرفع اسمك بين أسماء أولئك العظماء الذين تكبر الخلائق شأنهم وتشدو بفضلهم كل الامم ؟

باريس ١٨٦٦ مصطفى فاضل

هذه هى الكتب التى نقلها الى اللغة العربية فقيد العلم والأدب المرحوم احمد فتحى زغلول باشا والتى عنينا بنشرها واعادة طبعها حديثاً باذن من حضرة صاحب المعالى زعيم النهضة المصرية وركن التاريخ السياسى المصرى الحديث رئيس الوفد المصرى

(سعد زغلول باشا)

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

وقد هداه اليه بحثه الطويل فى تكوين الشعوب والأمم وتطورها وأوضاع تواريخها وتقلب حوادثها واختلاف مدنياتها واعتباره كل ذلك بالفكر النقاد والبحث الفلسفى العميق الذى امتاز به ذلك الفيلسوف العظيم وثمنه ١٥ غرشاً

وهو يطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر

سر تطور الأمم

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

بحث المؤلف فى هذا الكتاب عن أسباب الانقلابات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي غيرت من أحوال الأمم وردها الى مناشئها الفلسفية بدراسة أخلاق الشعوب وأحوالها النفسية مستشهداً بوقائع التاريخ لاثبات صدق نظرياته

وللدكتور جوستاف لوبون هذا شغف بدراسة الاحوال النفسية للشعوب والجمعيات وهو يعد الآن أول باحث فى هذا الموضوع الذى يؤذن بفن جديد فى الفلسفة والسياسة

وهذا الكتاب من خير ما كتب الكاتبون الاجتماعيون فى هذا العصر

وثمنه ١٠ غروش

ويطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر